

الأخلاق في القرآن فروع المسائل الأخلاقية

[20] وهي أن الاستكبار هو سبب (الكفر والعناد وعدم المرونة مقابل الحق)، وهنا تستعرض الآية حالة (الوليد بن المغيرة المخزومي) الذي كان يعيش في عصر نزول القرآن وتصف حالته في مقابل الحق والآيات القرآنية وتقول : (ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَتَقَالِ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُوْثَرُ) (1). كلمة "سحر" توضح جيداً أن الوليد قد أقر واذعن بهذه الحقيقة وهي أن القرآن الكريم له تأثير عجيب على الأفكار والقلوب ويتمتع بجاذبية كبيرة لعواطف الناس، فلو أن الوليد نظر إلى هذه الآيات نظر المنصف الطالب للحق فإنه سوف يعد هذا التأثير الغريب للقرآن دليلاً على إعجازه، وبالتالي سوف يؤمن به، ولكن بما أنه كان ينظر إليه من خلال حجاب الغرور والتكبر فإنه كان يرى فيه سحراً كبيراً كسحر الأقوام السالفة، أجل فكلما تراكم حجاب التكبر على بصيرة الإنسان وقلبه فإنه سينظر إلى آيات الحق بنظر الباطل وينقلب الباطل في نظره إلى حق. والمشهور أن الوليد كان يعيش الغرور إلى درجة أنه كان يقول: "إِنَّا الْوَحِيدُ بَنُ الْوَحِيدِ، لَيْسَ لِي فِي الْعَرْبِ نَظِيرٌ، وَلَا لِي نَظِيرٌ!" في حين أن الوليد كان يُعتبر بالنسبة إلى الناس في ذلك الزمان رجلاً عالماً وقد أدرك عظمة القرآن جيداً وقال فيه عبارة عجيبة مخاطباً بني مخزوم: "إِنَّ لَهْ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عِلَافِيَهُ لَطَلَاوَةٌ، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمَرٌ وَإِنَّ اسْفَلَهُ لَمُغْدَقٌ، وَإِنَّ زَهْ لَيْعَلُو وَلَا يُعْلَى عِلَافِيَهُ". هذا التعبير يقرب بوضوح إلى أن الوليد أدرك عظمة القرآن أكثر من أي شخص آخر من قومه ولكن التكبر والغرور منعه من رؤية شمس الحقيقة والإذعان لنور الحق. -- وتأتي "الآية التاسعة" لتستعرض في سياقها خطاب مؤمن آل فرعون لقومه ويحتمل أن تكون هذه الآية جزءاً من خطابه أو جملة مستقلة معترضة من الآيات القرآنية الكريمة حيث نقرأ فيها قوله تعالى: (الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَقْتًا 1. سورة المدثر، الآية 22 - 24.